مجلة الرائد

العدد : ١٨٣ الموافق في جمادى الأولى ١٤١٧ هجري ١٠ / ١٩٩٦ ميلادي

كلمات في الصميم : احذروا التحوير من الباطن !	بقلم : صلاح الدين بن إبراهيم

قال أحد الفضلاء : لقد شد انتباهي في السنوات الأخيرة إعجابُ عدد من المثقفين الإسلاميين بالكتابات النقدية ، وبخاصة تلك الداعية إلى إعادة النظر في العقود المنصرمة ، من حيث خيارات الحركة الإسلامية في التعامل مع الفكر الغربي وتجلياته السياسية والاقتصادية والاجتماعية. فلما وسَّعتُ النظر وجدت أن إعجاب معظمهم يرجع إلى أمرين :

الأول : ضعف المعرفة الإسلامية ؛ فالمواضيع ليست جديدة ، وبخاصة تلك التي تتكلم عن أصول الفهم « علم الدراية » والجديد هو الصياغة المرحلية والأمثلة المضروبة.

والثاني : قلة الاطلاع على تطورات الفكر الإسلامي المعاصر « تنظيراً وممارسة ». وقلة بضاعتهم بمعرفة رجال الفكر الذين أسهموا في تجديد قواعد الفهم ، وأظهروا حقائق عاصمات من قواصم مهلكات.

قال قائل : لقد أوجزتَ في الإشارة ، وكادت تنبهم العبارة ، فتكرم علينا بشرح يظهر قصدك ، ويحقق رغبتك !.

قال الرجل الفاضل : حباً وكرامة !... من المعلوم أن الحركة الإسلامية المعاصرة - بصرف النظر عن مجالات الاهتمام داخلها - قد أخذت على نفسها النهوض بواجبين أساسيين :

١- **تجديد منهج فهم الإسلام ، وإحياء العمل بما شرع الله عز وجل.**

٢- **مواجهة الفكرة الغربية في جانبها النهبي الاستغلالي ، وفي جانبها الثقافي المفسد للفطرة.**

وأن رواد حركة التجديد قد بينوا أن الفكرة الغربية « دينٌ » لأنها نظام حياة ، وما نظام إلا ويقوم على تصور اعتقادي ، يتناول الإنسان وغاية وجوده ، وكيفية تحقيق هذه الغاية. ووضحوا بجلاء أن الاختلاف في التصور هو أساس الخلاف بين الأديان. وأن مصطلح « الدين » ليس حكراً على ما يسمى بـ « الأديان السماوية ».

ولم ينس الرواد أن الغربيين في « عصر النهضة » ينطلقون في مواقفهم وتصرفاتهم تجاه المسلمين من مبادئهم الفكرية ، وذاكرتهم التاريخية ومصالحهم.

فعندما يأتي من يقول بأنه يطرح منهجاً جديداً لفهم سبب الخلاف بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية ، ويصل إلى أن تباين « مرجعية القيم » أي « العقيدة » هي السبب الرئيس في الاختلاف ، فإننا

لا نجد جديداً فيما قال ، وقد يكون هذا القول جديداً على من لم يطلع على عطاء المفكرين الإسلاميين. وأنا لا أعترض على توعية المسلمين بضرب الأمثلة التي تناسب المرحلة والمكان ، ولكنني أخشى أن تسفر ظاهرة « الادعاء » عن أمرين :

الأول : أن يتسرب غرور السبق إلى بعض كتابنا ، وعامتهم من الشبان ، فيدفعهم هذا إلى لون من الاستخفاف بجهد من سبق.

الثاني : أن يتسرب إلى تيار التجديد الاغترار بكتابات مكرورة ليس فيها جديد ، فيكون ذلك سبباً في الإعراض عن عطاء الرواد السابقين ، وفي الوقت الذي لا تزيد الكتابات الجديدة الناقدة قوة في الفكر وطرائق الفهم.

وأضرب مثلاً آخر بأصول الفقه ، فالحركة الإسلامية حركت هذا العلم ، ونشرته بين الناس بطرق متعددة ، على الرغم من أنها لم تستخدم كثيراً مصطلحاته التي استخدمها علماء الأصول. فعندما يأتي من يدعو إلى تجديد أصول الفقه ، ويقول بوجوب إضافة مسائل ، مثل « الحريات » و « حقوق الإنسان » ، إلى مقاصد الشرع ، فإنه يحدث بلبلة لاعتقاده أنه أتى بجديد مفيد ، ويدخل في عراك لفظي مع من ينكر إمكانية التجديد في قواعد أصول الفقه ، وقد يسفر العراك عن اتهامات خطيرة وقطيعة منكرة !!.

ولو وسع القائلون بالتجديد النظر لوجدوا أن ما يدعون إليه يدخل في مقاصد الشرع المتعلقة بحفظ النفس ، والعقل ، والدين ، وإن كان السابقون- لاعتبارات زمانهم - لم يذكروا في الأمثلة ما نراه ضرورياً ؛ بسبب ظروف القهر والاستبداد ، وما ينتج عنهما من آفات تهلك الأمم.

والحق أن الحركة الإسلامية المعاصرة قد أنزلت مسائل ، مثل « الحريات » ، منزلة الضرورات عملياً ، ودفعت ثمن هذا الاختيار جهوداً كبيرة وتضحيات جسيمة ، حتى بات تيار الصحوة القوة المعارضة لأنظمة الحكم الاستبدادية... ملكية وجمهورية ، ولا يطعن في هذا وجود فئة تعيش معركة الألفاظ والمصطلحات ، أو تحدد اهتمامها في ساحة من ساحات الحياة ، بينما لا تختلف رؤيتها للواقع عن الذي ذكرناه آنفاً.

قال أحد الحاضرين : ألا ترى أن الكتابات الناقدة قد تناولت عجز الحركة الإسلامية عن توفير شروط « الصواب » أي « علم الدراية » في التعامل مع الواقع السياسي والفكري والاجتماعي ؟.

قال الرجل الفاضل : إن الحوار الداخلي حول منهج الفهم ، ومنه : حُسْنُ الاستشهاد بالنصوص ، أي في تنزيلها على الواقع ، واجب تفرضه طبيعة الحياة الحية ، وهو باب من أبواب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتناصح. وقد أردت بكلامي السابق التنبيه إلى ظاهرة تكرار الجهود تحت عنوان التجديد ، وكم أتمنى أن يكثر المفكرون المبدعون الذين يأتون بإضافات جديدة ، تزيدنا بصيرة بالواقع ، وبالقوى المحلية والعالمية ، وبطرائق التعامل الأصوب مع المتغيرات.

❋ ❋ ❋

تأملت في مضمون الحوار السابق فوجدت أن الكثرة الكاثرة من أبناء التيار الإسلامي يعتمدون في تحصيل المعلومات على ما يسمعونه في لقاءاتهم الخاصة- ولا يخفى أن كثيراً من معلوماتها مكرورة ! - أو على قراءة مواضيع في صحف أو مجلات ، والذين سبقوا غيرهم اطلعوا على عدد من الكتب أيام الاندفاعة الأولى ، ثم توقف معظمهم عن القراءة الجادة ونأى عن مصادر المعلومات. ونتج عن هذا ضعف في الابتكار ، وضعف في الاستفادة من آراء المصلحين ، ووهن شديد في التمييز بين المجدد والمقلد.

وتأملت في الكتابات النقدية فرأيتها تصب في دائرتين :

١- دائرة نقد منهج فهم الوحي والتراث.

٢- دائرة نقد منهج الرد على الفكرة الغربية ، بما في ذلك التيارات والحكومات التي تبنت العلمانية في بلاد المسلمين. وهنا يحتاج الأمر إلى وقفة متأنية ، تميز بين طريقة التعامل المرفوضة بضوابط الشرع ، وبين تراكمات الهجمة الماكرة ، محلياً وعالمياً ، والهادفة إلى توليد « فكر معتدل » وفي الحقيقة « فكر انهزامي » يشل حركة التجديد تحت عنوان الوعي والعقلانية. ولا شك في أن الذين تتراكم لديهم مفاهيم الهزيمة لا يشعرون بذلك ، بل يرون أنفسهم مجددين منقذين !!. وقد عرفت أمتنا فتناً سياسية وثقافية ترسب من خلالها في الفكر والسلوك معانٍ ظن أصحابها أنهم على أساس مكين من المعرفة ، فأحدثوا شروخاً رهيبة كريهة ، وأشير هنا إلى « علم الكلام » وآثاره الاعتقادية والعقلية !!.

إن أخشى ما نخشاه هو أن يحصل تحوير داخلي يعجز المثقفون الإسلاميون عن كشفه ، فيأخذونه من باب التجديد والوعي ، وتكون نتيجته قيوداً وعبودية للغزاة ، وهم يظنون أنهم يحسنون صنعاً.